ففي البرّ سهولا وجبالا وصحارى مشّطها الإنسان واكتشف أسرارها وجمالاتها وحاجاته منها، وفي البحار والمحيطات والأنهار سبر أغوارها وتعمّق فيها وخضعت له، اذ جعلها غاية ووسيلة مستفيدا من كل ميّزاتها وسماتها وخيراتها. وانتقل بعد ذلك ليغزو الفضاء ويكتشف ما لم يخطر على بال السالفين، على الرغم من أحلامهم البعيدة والقصيّة، وهم يقضون جيلاً بعد آخرمتأملين أن يحققوا في الأجيال التالية ما لم تعرفه أو عجزت عنه الأجيال السالفة. وكلما جاء قرن نراه يحثّ الخطى الى تطوير ما أتى به الأوّلون وحققوه ليكون القرن اللاحق أهم من السابق، بعد أن اعتمد على تواعده ومعطياته، فيتطوّر الكون من مهم الى أهم ومن حسن الى أحسن.

وكلما حقق الإنسان نجاحاً وأتى بإختراع جديد وفكر جديد ونظام جديد، يزيد الحمد لله والشكر لله الذي أنعم على أبنائه بالمواهب والأفضال والإمكانات الخارقة والسامية جداً. وهذا يأتي إنسجاماً مع التزامه بناموس الطبيعة وشريعة العقل والضمير وصولاً الى المبادىء والقوانين والنواميس التي سنّها الإنسان من خلال انتمائه أو انتسابه او تمسّكه بموروثات روحانيّة صاغت وحصرت هذه المفاهيم بمصوغات العقيدة والإيمان التي تعلّمها من بيئته وثقافته وخبرته. وهكذا غدت الأديان لحمة حياة الإنسان وسداها في كلّ زمان ومكان.

قد يسأل سائل ما هو القول بالملحدين ناكري وجود الله أو الذين لا يعترفون ولا ينتسبون الى أيّ دين، أين نصنّف هؤلاء؟ فالجواب: إنّ الإنسان هو محور الكون وبوصلة حركته وشرايين حياته، ولولا وجود الإنسان لما كان معنى للكون ولا للمخلوقات، وهذا الذي فكّر به الله وجعل خلقة الإنسان خاتمة لمخلوقاته ليرعى الكون بنوره وظلامه، بليله ونهاره وبجماده، برّه وبحره، أرضه وسمائه، حيوانه ونباته، وبالإجمال في ما هو مخلوقٌ خاضعٌ للحواس الطبيعيّة وما لا يخضع لنواميس الحواس الطبيعية، وهذا تسميّه العلوم بالميتافيزيقيا أي الماورائيّات.

ومن هنا، فالإنسان هو الإنسان بإلحاده وإيمانه ، بعبثيّته وجدّيته ، بحرّيته وعبوديّته، بل في كل ظروف حياته هو خاضع لنواميس الكون ونسميّها التدّين بما يؤمن به ويلتزم به. ولا يخلو إنسان في الكون من التدّين بهذه النواميس ولو بطريقته، ولكنه في البداية والنهاية يشعر في أعمق أعماقه أنّ هناك سيّدا ملكاً مدبّراً للكون هو الله لدى المؤمنين المتدّينين، وهو القوّة المطلقة لدى الذين يهربون من الواقع والحقيقة لأحاسيس ذاتيّة تتعب أفكار ملتزميها وحامليها. وقد قال القديس مار أوغسطينوس من آباء القرن الرابع الميلادي : **ليس أحد ينكر وجود الله ما لم يكن له نفعٌ في عدم وجوده.** وهذا هروب من الواقع والحقيقة وتعويض للمعانيات التي تعكّر صفاء غير الملتزمين بالأديان والتدّين.